صفحة من تاريخ التجارة المصرية (١)

التنازع والتخاصم بين مصر وانجلترا على احتكار تجارة الهند

ايها السادة الكرام وايها الابناء الاعجاب

حياكم الله تحية مباركة طيبة وشكركم جميعاً بالصحة والعافية وجعل تجارتكم رابحة في الدنيا والآخرة

وقفت بكم هذا الموقف منذ ثلاث سنوات ومن بواعث سروري الصحيح ان اقف بينكم اليوم ذلك الموقف مرة ثانية . وان اشاهد بعيني تقدم المدرسة المطردة في سبيل الفلاح . فاني اعتقد ان كل خطوة تخطوها أية مدرسة الى الامام انما هي حجر جديد يوضع في دعائم الرقي الذي تتمناه لمصر . ويقيني ان بلادنا لن تفلح الفلاح المطلوب الا اذا انصرفت طائفة كبيرة من ابنائها الى الشؤون الاقتصادية وحولوا همتهم الى الامور المالية ليكونوا قدوة صالحة للامة كلها في وجوب الاعتماد على النفس

ايها السادة

لو كان الانسان يستطيع ان يستغني عن غيره من الناس وان يحصل بنفسه كل ما يحتاج اليه في حياته على اطلاقه فلا يطلب من غيره شيئاً ولا يمد الى سواه يداً لا بالاخذ ولا بالعطاء لما احتاج الناس الى التجارة . ولكن الامر على غير ذلك فانه من المستحيل — حتى في الخيال — تصور هيئة اجتماعية مؤلفة من شخص واحد يفي عمله بحاجات نفسه او مؤلفة من اشخاص عديدة لا اختلاط بين افرادها بل كل منهم يكون عالماً قائماً بذاته غريباً عن العالم الذي يحيط به او يجاوره . فالستديار البحري عند العرب وروبنسون كروزي عند الافرنج اذا كانا استطاعا — كما تقول الاقاصيص — ان يعيشا في عزلة تامة عن البشر لمدة ما — وان يجدا كل ما يحتاجان اليه انما هما من انباء الخيال لا من ابناء الاجتماع . اما الانسان بحسب ما تدركه عقولنا اي باعتباره جزءاً من الاجتماع الذي نعيش فيه لا هيئة كاملة مستقلة فهو من مهده الى لحده ومن مطلع فجره الى مغرب شمسه محتاج الى اخيه الانسان احتياجاً مطلقاً . وهذا ما يعبر عنه الحكماء بقولهم « الانسان مدني بالطبع »

(١) من خطبة لصاحب السعادة احمد زكي باشا السكرتير الاول لمجلس النظار القاها في احتفال المدرسة الاميركية بالاسكندرية في ٢٦ يونيو سنة ١٩٠٧ عند توزيع الشهادات على المنتهين من تلامذة القسم التجاري منها

فهو يعطي جاره ما يزيد عن حاجته مما يصنعه ويأخذ في نظير ذلك ما يحتاج اليه مما يزيد عن مطلوب جاره . وتلك هي التجارة

فالتجارة اذاً هي تبادل الحاجات بين الناس . ذلك هو تعريفها في ابسط مظاهرها . وانما اتسعت دائرتها وتشعبت انحاؤها باتساع دائرة العمران وازدياد الحاجيات ازدياداً هائلاً دعا اليه تبسط الناس في طيب العيش . فعانهم في التهافت على الترف تبعاً لسنة الارتقاء

فليست التجارة عملاً كل فائدته عائدة على التاجر وانما هي عمل عام يهم الجمهور كلهُ . وتزداد الاوطان قوة ورخاء ويسر بنسبة رواج حركة التجارة فيها ومنافستها لغيرها في هذا الباب الفسيح من ابواب الرزق

ربما قائل يقول : وما هي وظيفة التجارة بالضبط ؟ الناس هم الذين ينتجون والناس هم الذين يستهلكون . فاي مجال لذلك الدخيل بين فريقي المنتجين والمستهلكين ؟

أقول لكم تلك الوظيفة في كلمات وجيزة . يزرع الناس الارض ويدخلون الى بطونها فيستنبطون منها الارزاق والمعادن . يشتغلون قلل الجبال ويغوصون في اعماق البحار فيستخرجون منها اللآلىء والدرات . ثم يكوسون هذه المحاصيل التي تدرها عليهم امهم (الطبيعة) بلا حساب وتزيدهم منها كلما زادوا اقداماً . ولكن هذه المحاصيل يجب تصريفها وايصالها الى من يحتاجون اليها والا كانت عديمة الجدوى عديمة القيمة « والمندل الرطب في اوطانهِ حطب » . فالتجارة هي التي تتكفل بهذه المهمة لان وظيفتها تصريف هذه المحاصيل وتوزيعها . وهذا العمل منتج في ذاتهِ فعلاً لا مجازاً . لان الانتاج هو ايجاد قيمة لشيء انعدمت قيمتهُ او قلت وهو ما تفعلهُ التجارة

لذلك كان للتجارة منذ بدء العمران اثر فعال في حياة الناس وكانت في كل حين من اقوى العوامل في انتقال مظاهر الحضارة من اقليم الى آخر . فكان التاجر وهو آت بقافلتهِ من اقصى البلدان الى بلد قريب يقتبس منهُ ويبث فيهِ — ولو على غير علم منهُ — كثيراً من العادات والاخلاق والافكار . فكان كل تاجر رسولاً من رسل الحضارة في تلك الايام التي لم يكن فيها بخار ولا كهرباء ولا تليفون ولا تلغراف . وقد شهد التاريخ بان القوافل التجارية — البرية على متون الابل والفلوية والبحرية على متون المراكب الشراعية بل على متون الاقدار — هي التي كانت واسطة الاحتكاك ووسيلة التواصل بين مختلف الامم من الجهتين الحسية والمعنوية

ومما يجب ان لا يبرح عن البال ان التجارة كانت ملازمة للحضارة في كل زمان ومكان فحيثما ارتقت احداهما ارتقت الاخرى حتماً وايتها انحطت الاولى ضاعت الثانية بلا جدال

انظروا قليلاً الى الماضي — بل الى الحاضر — وقولوا لي لماذا كان البحر الابيض المتوسط على الدوام ذلك المركز الممتاز الذي لا يشاركه سواه ؟ ولماذا اشتهرت الحضارة القديمة تقريباً في البلاد الواقعة على ضفافه فكان سكانها اكبر الامم شأناً واعظمها جاهاً وأظهرها اثراً ؟ ليس ذلك لان البحر الابيض ماؤه عذب فرات وماء غيره من البحار ملح أجاج . ثم هو في الواقع صغير اذا قيس بغيره من البحار . إنما السبب كل السبب هو في انهُ كان طريق التجارة بين الامم كان الصلة بين الشرق والغرب . وقد قلنا ان التجارة والحضارة متلازمتان هيهات ان تفترق احداهما عن الاخرى

تُرى أيهما كان العلة وأيهما كان المعلول ؟

أكان انتشار التجارة سبباً في رقي الحضارة ام كان تقدم الحضارة داعياً الى اتساع دائرة التجارة ؟ اللهم اني استغفرك من الزلل واعوذ بك من مواقف الخطل ! فانا مقر اني عاجز عن الجواب قاصر عن فصل الخطاب . وانا انا ارى ان كلاً منهما علة ومعلول سبب ونتيجة . فشأنهما شأن البيضة والدجاجة او هما كحلقة السلسلة المفرغة لا يدرى اين طرفاها

ولما كانت التجارة هي الدعامة الكبرى للثروة واضمن السبل لوصول اليها فهي إذن بلا جدال الأس الذي بني عليهِ رقي الامم درجة شأنها . لذلك كان امل مصر كبيراً في أبنائها العاكفين الآن على أعلم التجارة عساهم يسترددون لها مكانتها الجديرة بها حتى يصح لهم ان يصيحوا في جوانبها بملء افواههم : هذه بضاعتنا رُدَّت الينا

نعم فقد كان الشرق على الدوام ولا يزال المورد الذي تتناول منهُ بلدان العالم حاجاتها وتستجلب المواد الاولية اللازمة لمصنوعاتها . ولما كانت مصر هي الصلة بين الشرق والغرب وطريق التجارة العامة كان لها حتماً بسبب موقعها الجغرافي شأن لا يستهان به . وهذا الشأن هو الذي جعلها مطمح الانظار ومرمى الابصار على مر الازمان

لو شئت ان اتوه هنا — ولو بالايجاز التام — عن حالة مصر من هذا القبيل في مختلف ادوارها لاعجزني المقام وضاق بي المجال . ولكن لو قام بينكم اديب ضليع ، وضع مؤلفاً شاملاً في تاريخ مصرنا التجاري بصفتها صلة الامصار من اول عصور التاريخ الى الآن واستوعب الادوار التي تقلبت عليها في هذا المضمار : من فلاح وخيبة ويسر وعسر وتقدم وتدهور ونهوض وهبوط لاخرج لكم كتاباً قيماً يجمع بين السلاوة والفائدة

على ان ما لا يدرك كله لا يترك كله . فسأحدثكم الليلة عن دور من ادوار مصر في ميدان التجارة واحدثكم من طريف الحديث وتليده ما لم يكن يخطر لاحدكم على بال

على اني قبل ذلك اذكر لكم على سبيل الاستطراد ان المسلمين ينظرون الى التجارة نظرة احترام خاصة ويكرمونها أيما اكرام لان رسولهم عليه الصلاة والسلام كانت حرفته التجارة . فقد بدأ حياته قبل الرسالة تاجراً فكان يذهب الى الشام لهذا الغرض حيث اشتهر بالامانة اي اشتهار فكان لذلك اكبر نبراس هداه الى ان الامانة هي رأس مال التاجر وسر نجاحه ومحمد ثروته . واي سنة يعتبرها المسلمون اشرف من المهنة التي تشرفت بانتساب رسولهم اليها ؟ فلا غرو ان فطروا على إكبار التجارة والتجار وقد يجهم كلة ادلة ناصعة ناطقة بما للتجارة في نفوسهم من الاحترام وبما كان لها من الاثر الصالح في انتشار الاسلام ونشر حضارته . اذكر منها — والحديث شجون — مثلين اثنين يخولي ذكرهما بصفتي مسلماً وبصفتي مصرياً لانهما يدلان على رفعة النفس وشرف الاحساس وصدق المبادىء . يدلان على ان الشرقي متى كان حكيماً حازماً ترفع عن السفاسف والصغائر ووسمت نفسه الى درجة من السمو عديمة النظير

واول المثلين عن صلاح الدين يوسف بن ايوب وثانيهما عن محمد شباب مصر ومعيد مجدها الحديث وباعث طبعاً محمد علي الكبير رأس الاسرة العلوية والجد الاعلى للكريم ابن الكريم الكريم حسين بن اسماعيل بن ابرهيم

هل جاءكم حديث ابن ايوب ؟ دلكم هو صلاح الدين فخر الملوك الصيد وتاج الامراء الصناديد بل زينة الرجال على الاطلاق حارب الصليبيين حرب القروم فصرعهم وصرعوه وغلبوه وغلبهم والحرب سجال . وليس الفخار صفة للانتصار وليس العار ملازماً للانكسار اذا الفخر ان يكون الرجل متصفاً بصفات الكرام وان لا يحيد قيد شعرة عن مبادىء الشهامة والمروءة والفتوة . ومن ذا الذي بلغ ما بلغه ابن ايوب من كريم الشيم ومحاسن الاخلاق التي رفعت قدره واجتذبت نحوه قلوب الاعداء قبل الاصدقاء باطهرت اسمه في التاريخ تحوطه هالة من الانوار؟

عرفناه حامياً لدينه حامياً للبلاد حامياً لدولته . فماذا كان نصيبه فيما يتعلق بالتجارة ؟

اصدر هذا الملك الكبير امره الى قواده وجنوده بان لا يتعرضوا للتجار المسيحيين باذى وان لا يتقلوا راحتهم لاي سبب ما . لان هؤلاء التجار ليسوا من المحاربين . فكانت قوافل التجار المسيحيين الآتية من اوربا تروح وتجيء في بلاد المسلمين هادئة مطمئنة لا يتعرض

معترض والحرب حينئذٍ مستعرة الاوار والمعارك والغزوات قائمة من الجانبين

ومن اولئك السيحيون الاوربيون هم الذين جاؤوا ديار المسلمين غازين فاتحين . الذين جاؤوا لينزعوا عن تاج صلاح الدين درة من اثمن الدرر

تالله ان هذا المثل لهو من ابلغ الامثال التي وردت في التاريخ وهو وان كان يرجع على الاخص الى روح التسامح التي اشتهر بها صلاح الدين وتعطرت بذكراها الاسفار والايام الاَّ انهُ يدل بصورة جلية على ما كان للتجارة من المكانة والاحترام عند ملوك الاسلام

ولقد اثرت هذه القدوة الحسنة في الصليبيين انفسهم فحذروا حذو خصمهم الكريم وسمحوا لقوافل التجار المسلمين بان تمر في الاراضي التي كانوا يمتلكونها ويحتلونها دون ان يتعرض لها احد منهم بسوء على الاطلاق

بل اسمعوا ما قالهُ في هذا الشأن السائح ابن جبير الاندلسي الشهير والمدفون برمل الاسكندرية المعروف باسم « سيدي جابر » . قال ما نصهُ بالحرف الواحد : « ومن اعجب ما يُحدَّث بهِ ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقي الجمعان ويقع المُصاف بينهم ورفاق (قوافل) المسلمين والنصارى مختلف بينهم دون اعتراض عليهم . شاهدنا ذلك في هذا الوقت [الذي هو شهر جمادي الاولى سنة ٥٨٠ للهجرة = اغسطس — سبتمبر سنة ١١٨٤ للميلاد] . من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك وهو من اعظم حصون النصارى وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين عن البرية بينهُ وبين القدس مسيرة يوم او اقل قليلاً وهو سرارة ارض فلسطين ولهُ نظر عظيم الاتساع متصل العمارة يذكر انهُ ينتهي الى ٤٠٠ قرية . فنازلهُ هذا السلطان وضيق عليهِ وطال حصارهُ بهِ واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك وتجار النصارى ايضاً لا يُمنَع احد منهم ولا يُعترض . وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم وهي من الامنة على غاية وتجار النصارى ايضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم . والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الاحوال . واهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب »(١)

أفرأيتم ما وصل اليهِ التجار بون في القرن الثاني عشر للميلاد اي في قلب القرون الوسطى — في تلك العصور التي يدعوها ابناء اوربا ظلماً بعصور الظلام — فقد وصلوا في تلك الايام الخالية الى ما لم يصل اليهِ المستنيرون والمتحضرون المعاصرون لنا في القرن

(١) رحلة ابن جبير ص ٧ — ٢٨٨ من الطبعة الثانية بليدن

العشرين بل قد بلغ بتلك الاقوام غاية رقي لا تدركها الانسانية بعد قرون طوال من احترام تجارة العدو في زمان القتال !

اما محمد علي فانهم يعلمون ما كان بينهُ وبين الدولة العثمانية من الوقائع الجسام ويعلمون أن مصلحتهُ كانت في تلك الايام متناقضةً مع مصلحة بريطانيا العظمى فهي التي وقفت في سبيلهِ وحالت بينهُ وبين تحقيق مآربهِ ولكنهُ بالرغم من اشتداد نار الحرب بينهما واستحكام المدارة — اتى بعمل اعجز اعاظم الخلق من المتقدمين والمتأخرين[1]

فاسمعوا ما قالت احدى الجرائد الانجليزية وهي جريدة « نومسيانيك كرونيكل » في المجلد الخامس من المجموعة الاولى صحيفة ٤٧ الى ١٥٠ :

« وفي اثناء هذه الحرب بينما كنا نحاصر ثغور الباشا ونحرق مدنهُ وقراهُ ونلقي الخراب والدمار في اراضيهِ ونفني عساكرهُ آلافاً بعد آلاف ونعرض حياتهُ للخطر كان هذا الشيخ الجليل الوقور يترك طريق المواصلات الاكبر مع الهند مفتوحاً وينقل رسائلنا عن طريق بلادهِ ويحمي رعايانا من السوء سواء كانوا من التجار أو من السفار مع ان قوانين تلك الامم التي يدعونها « متمدنة » تسمح لهُ باعتقالهم كاسرى حرب وبالاستيلاء على متقنياتهم ومصادرتها لنفسهِ طبقاً لاحكام تلك القوانين

« لقد تغلب ذلك الرجل الكبير بصورة موجبة للاعجاب على الاهواء البشرية السافلة والاغراض النفسانية المنحطة في ظروف من اشد الظروف حرجاً فعمل بمبادىء سامية تترفع عن كرم منقطع النظير وهي في جوهرها وحقيقتها مبادىء مسيحية فانقلبت الامور ووجب ان يحسب المغلوب غالباً ظافراً . ولا شك انهُ متى تبددت الاوهام وزالت ما رسخ في الاذهان فان الاجيال المقبلة ستمجد ذكراهُ وتحفظ اسمهُ في عداد المحسنين للانسانية »

وقد اطنبت الصحف الانجليزية في الثناء على محمد علي لاجل هذا العمل الجليل واجتمعت الغرفة التجارية في بمبي على صياغة نوط (ميدالية) قدمتهُ لهُ مع عريضة شكر اعجاباً بما ابداهُ من الشهامة وما اظهرهُ من علو النفس . وهذه العريضة محفوظة بنصها الانكليزي في دار الآثار العربية واليكم ترجمتها :

« عن مدينة بمبي في ٢ يونيو سنة ١٨٤٠

« الى حضرة صاحب السعادة محمد علي باشا والي مصر

(١) البيانات الآتية مأخوذة عن بحث لمحبوب افندي باشا الفقه المرسلة في مجلة « مصر » سنة ١٨٩٧

« مولاي

« نحن الموقعين على هذا اعضاء الغرفة التجارية بمدينة بني سويف نلتمس من مكارم سموكم ان تسمحوا لنا بالتعبير عما يختلج افئدتنا من عظيم الشكران لخالص الامتنان لما تفضلتم به من حسن الرعاية وكريم العناية الخليقين عن الغرض في نقل المسافرين وتبادل الرسائل عن طريق مصر في زمن الحرب التي نشبت اخيراً في الشرق

« وكونوا سموكم على يقين بانا نقدر هذه الرعاية الجليلة التي منحتموها لنا في وقت لو حرمتمونا اياها في اثنائه لعدنا خاسرين جمة بسبب تأخير وصول البريد بل احتمال فقده

« ولو ان هذا العمل صدر عن دولة مصادقة لدولتنا لكان من واجبنا ان نرفع لها فرض الشكر عليه . اما وقد صدر عن سلطة كانت في ذلك الوقت معادية لحكومة بلادنا وكان صدوره عن محض ارادتها فانهُ يلوح لنا انهُ جدير بخالص شكرنا القلبي بل هو فوق ذلك خليق باعجابنا المتناهي

« واسمحوا لنا يا مولاي فضلاً عن ذلك بأن نؤكد لكم ان ذكرى هذا الفعل الجميل ستبعث في افئدتنا على الدوام الشعور بعظيم الحمد رفائق الثناء . ولنا وثيق الامل بان الذي ظهر بمظهر العدو الكريم الاخلاق الكريم الافعال سيكون لبلادنا صديقاً لا تغير مودتهُ الايام[1] »

* * *

ذكرتُ هذين المثلين للدلالة على شهامة الشرقي وعلى احترامهِ للتجارة — فهل يقدر أحد من ابناء الغرب ان يضارع فعل مصر في هذه المكارم ؟ وما هي اخبار الحرب الحاضرة الهائلة لتكفل بالجواب !

ذكرت لكم « صلاح الدين » و« محمد علي » لانني اريد ان اتوسم دائماً بمفاخر بلادي لاحياء الكمالات التي اعتقد انها لا تزال كامنة في نفوس قومي عساهم يتنبهون لانفسهم ويعملون على استرجاع مكانتهم . ولن احيد عن هذه الخطة كلما سنحت لي فرصة لانني اعتقد ان الذكرى تنفع المؤمنين

ذكرتُ لكم صلاح الدين ومحمد علي . واريد اليوم ان اقف في منتصف الطريق بين هذين البطلين اللذين أسسا دولتين كبيرتين في وادي النيل . ففي منتصف هذا الطريق

(١) وفي ذلك الاجتماع وعددهم ٢٧ من اكابر التجار الانجليز يستوقف الانتظار فيها امضاء تاجر مسلم كتب اسمهُ بالانجليزية ووضع نقرة هذه العبارة : « الخلص مهرزا علي محمد بن محمد علي خان شوشرى »

سقطت في مصر دولة كانت لها الزعامة الدينية والسياسية في الشرق وكانت لها السيطرة على بلاد اوربية بسبب التجارة

اريد اليوم ان اناجيكم بقليل مما وصل اليه علمي عن التجارة العامة الآتية ولكن من الوجهتين التاريخية والجغرافية ومع الاقتصار على ما يتعلق بمصرنا المحبوبة . أريد ان اساجلكم الحديث عن اهمية هذا الوادي البهيج وادي النيل السعيد من حيث مركزه التجاري المنقطع النظير ذلك المركز الذي جعل لبلادنا في وقت من الاوقات رجحاناً عظيماً في كفة السياسة العمومية وجعل لاهليها بل لاجدادنا الاقربين مقاماً ممتازاً في الثروة العمومية . فلقد كان لمليسار في ذلك الوقت مادة رواقة على هذا القطر واهليه بما اوجب ازدهار الفنون الجميلة على ضفتيه وفي كل نواحيه . وناهيكم بالعاصمة القاهرة فقد كانت جنة الدنيا وقرارة العليا بل كانت في مجموعها عبارة عن متحف ثم عظيم لا تزال بقاياه الثمينة الجليلة في الاحياء الوطنية شاهدة بذلك المجد الذي لا يعادله فخار

لاجل ان يكون التفاهم بيني وبينكم متبادلاً (على ما يقول التجار) وتاماً كاملاً على رأي ارباب الاقلام اطلب اليكم ان ترجعوا معي بالخيال الى الخريطة الجغرافية والى المأجريات التاريخية في اوائل القرن العاشر للهجرة (اوائل القرن السادس عشر للميلاد)

فاولاً — اذا نظرتم بعين البصيرة الآن الى ما استوقف انظاركم في حلقة الدروس الجغرافية وتخيلتم الخريطة الجامعة : إذن لرأيتم مصرنا هذه مركزاً طبيعياً للقارات الثلاث القديمة (افريقيا) و (آسيا) و (اوربا)

تدبروا رعاكم الله هذا الموقع البديع ! فقد كان ولا يزال محط الابصار ونقطة الاتصال بين سائر الاقطار

أفلا ترون بحر القلزم (البحر الاحمر) ساجداً خاشعاً امام سواحل مصر الشرقية وهو بحر الروم (او بحيرة المملكة العربية في ايام عز العرب الذي نسميه الآن بالبحر الابيض المتوسط) يترشف ثغورها من جهة الشمال ثم ينطلق مغتبطاً بهذا الوصال حتى ينتهي من جهة الغرب الى بحر الزقاق (بوغاز جبل طارق) حيث يخالط مغاني الاندلس الزاهرة تكتنفها رياض بلاد البرتقال المطلة على البحر الاخضر بحر المظلمات بحر اقيانس كما يسميه العرب وهو الذي ندعوه الآن متابعة للافرنج بالمحيط الاطلنطي ويغلط من يقول الاطلسي ذلك البحر الاخضم الذي تترادف امواجه كالجبال حتى رأس الزوابع المعروف برأس الرجاء الصالح ومن هناك يتصل بلجج المحيط الهندي المسمى لدى العرب ببحر الزنج وببحر الهند الذي

ينتهي الى شطوط الهند والهند الصينية ثم ينعطف في الصين نهاياته عند الشمال الغربي الى زقاق ضيق تكثر فيه الكوارث وتتتابع النوائب وهو المعروف عند جميع الامم بالاسم الذي وضعهُ له العرب اعني باب المندب . هذا الزقاق تنفذ منهُ الامواه الى بحر القلزم باسم القلعة فالمدينة (Clisma) التي لا تزال بعض بقاياها الضئيلة ماثلة شمالي مدينة السويس والى هنا انتهيتُ من تخطيط الثلث الاول من تلك الدائرة العظمى التي مركزها بلاد مصر

اما الثلث الثاني فهو بلاد اوربا ولا ازيدكم بها تعريفاً . ففيها ما فيها من ضخامة الملك واستجمار العمران بل فيها قبة الاسلام والمدينة الخالدة ومدينة الانوار وسلطانة البحار وانما اشير على جناح السرعة الى ما لهُ ارتباط وثيق فيها انا بصددهِ اعني تركية اوربا وجمهوريات البندقة وجنوة وفلورنسه وبلاد القيطلان ومملكة اسبانيا ومملكة البرتغال كانت في ذلك العهد قابضة على جميع ازمة التجارة في ديار اوربا وكانت لها السيطرة والرجحان في سياسة ايطاليا بسبب علاقاتها التجارية ومحالفاتها السياسية مع السلطنة المصرية

اما الثلث الثالث فهو قارة آسيا مهبط الجنس البشري منبع الامم موطن النبوآت مصدر التجارات . فلقد اودع الله فيها من كنوز الطبيعة وذخائر الصناعة ومفاخر الزراعة ما هو فوق الوصف والتعريف . والذي يهمنا منها في هذا المقام هو بلاد الهند وحسبك ببلاد في بحرها الدر وفي برها الذهب وفي جبالها الياقوت والماس وفي شعابها العود والكافور وجميع انواع الطيب . كالقرنفل (Girofle) والسنبل (Nard) والدارصيني (Cinamone) والفاقلة (Cardamone) والسليخة = القرفة (Canelle) والكبابة (Cubèbe) والسباسة وهي قشرة جوز الطيب وغزال المسك . بل هي بلاد لا نقاس في الارض بمملكة سواها لاتساع اقطارها وكثرة اموالها

ثانياً — اذا رجعنا الى ما استرعى اسماعنا وروّع البابنا من الحوادث التاريخية في الربع الاول من القرن العاشر الهجري او بطريق التحقيق والتدقيق الى المدة المحصورة بين سنتي ٨٩٨ و ٩٢٣ هـ (١٤٩٢ م — ١٥١٧ م) وقفنا على مكانة مصرنا في التجارة الدولية الاممية وعلمنا كيف انهار ملكها وكيف شاعت ثروتها في وقت واحد معاً

للاجل استحكام الاخذ والعطاء بيني وبينكم فيما انا آخذ بسببهِ من البيان ينبغي لي ان أسرد لكم اسماء بعض المشاهير من الذين كان لهم شأن في تمثيل تلك الرواية الواقعية على مسرح العالم في اوائل المدة الزمانية المعروفة بالعصور الحديثة

يقول الفرنساويون A tout Seigneur, tout tronneur وانا ارجح هذه المقولة

« الامير اري بالتصدير » . فذلك كان من الواجب ان يبدأ بذكر اصحاب الشجان وصديري المالك في تلك الايام

فاولهم واكبرهم بلا مراء ولا جدال هو ذلك الذي صح له ان يقول كلمة سيقة سلفة اليها وهي : « أليس في ملك مصر وهذه الانهر تجري من تحتي » . ذاكم هو السلطان الملك الاشرف ابو النصر عبد الله قانصوه الغوري الذي جلس على عرش مصر وعمره ستون سنة وبقي حاكماً عليها ١٧ سنة من سنة ٩٠٦ الى سنة ٩٢٣ هـ (١٥٠٠ الى سنة ١٥١٦ م) الى ان لقي مصرعه تحت سنابك الخيل بمرج دابق بالقرب من حلب وهو يدافع بنفسه عن تاجه وصولجانه ويحمي بيضة ملكه برمحه وسنانه . وهو الذي يسميه البرتقاليون Canaçaa ثم حرفوا اسمه الى كانسور Cansor

وكان في القسطنطينية حينئذٍ السلطان سليم الثاني فاتح مصر المعروف عند البرتقاليين باسم Selimxa

في مكة الشريف بركات بن محمد بن بركات

في اليمن الملك الظاهر صلاح الدين عامر بن عبد الوهاب بن ظاهر آخر دولة بني طاهر التي تلقت الملك عن بني رسول قتله في ٢٣ ربيع الآخر سنة ٩٢٣ (ابريل سنة ١٥١٧ م)

الامير حسين الكردي المصري

في عدن الامير رجان العامري وهو الذي صدّ البرتقاليين عنها حينما هجموا عليها بقيادة الفرنسو البوكرك في سنة ٩٠٩ هـ (١٥١٣ م) وقد حرّف البرتقاليون اسمهُ كما يأتي :

Mira Merjão. Miramijan. Mirhmiriam. Miramirjão, Miramizam, Miramegena.

في كجرات (جزرات) Gandjerat السلطان ناصر الدين ابو الفتح مظفر شاه خليل من قبله ابوهُ محمود شاه بن محمد شاه بن احمد شاه بن محمد شاه بن مظفر شاه وكانت كنبايه (Cambaya) من جملة ممالكهِ

في كاليكوت عاصمة بلاد مليبار السامري [1] وهو وثني قد دافع البرتقال عن بلادهِ وانكى فيهم كثيراً

---

(١) هذا الاسم يطلق على كل من ملك السلطنة في كاليكوت وهو مشتق من كلمة (تامورى) و (سامورى) و (ساموري) باللغة السنسكريتية ومعناها نعلة سمري في لغة الملابار ومعناها (ملك البحر) ويسميهِ العرب السامري وامّا البرتقاليون فيقولون Samorin وهم الافرنج عموماً Zamorin

واذكر على سبيل الاستطراد اسم السلطان ابي عبدالله بن محمد الاحمر النصري المعروف عند الافرنج بطريق التحريف والاختصار باسم بو أبديز (Boabdil) وهو الذي انقرضت على يديه البقية الباقية من ملك المسلمين الطويل العريض الفخم الجليل بديار الاندلس

اما مشاهير افراد الشرقيين فهم :

احمد بن ماجد رجل ماهر في سلك البحار الهندية وهو الذي تولى البو قاسكو دوجاما واسكره حتى دلّهُ على طريق الهند

الامير حسين الكردي الذي يذكرهُ البرتقاليون باسم ميرهوسم (Mirhocem) الذي ارسلهُ السلطان الغوري لاغاثة ملوك الهند من عادية البرتقال

الريس سلمان امير الاسطول المصري

اما ملوك الافرنج في ذلك العصر فكانوا

يوحنا الثاني ملك البرتقال الملقب بالكامل (le Parfait) وكان ولوعاً بالاكتشافات البحرية . ثم عمانويل الثاني خليفتهُ على سرير البرتقال وهو الملقب بالسعيد (le Fortuné) ولقد حقّ لهُ ذلك اللقب فقد خدمهُ الجد والسعد الى آخر حد حتى استعمر بلاد الهند وانتزع التجارة من مصر

ثم فرديننند وايزابلا الكاثوليكيان الشتركان في الجلوس على عرش اسبانيا وهما اللذان استصفيا ملك العرب بالاندلس من السلطان ابي عبد الله الاحمر النصري . وكان لهما الحظ الاوفر من استكشاف امريكا

اما مشاهير رجالات الافرنج الذين يعنينا شأنهم فهم :

دياز البرتقالي الذي اكتشف رأس الرجاء الصالح

وكرستوفر كولمب الجنوي مكتشف امريكا

وقاسكو دوجاما البرتقالي الذي سماه قطب الدين النهروالي في « البرق اليماني » « أبي مَنْدي » تحريفاً لعنوان وظيفة « الميرانتي » (Almirante) التي اخذها البرتقاليون عن لفظة « أمير البحر » فحرف العرب لفظ اجدادهم (١)

---

(١) يظهر ذلك قول اهل اسكندرية « مغازة » و« ترسانة » فان هذين اللفظين مأخوذان عن كلمتين ايطاليتين Darsena, Magazzino نقلها الافرنج عن العرب فصارت عندهم « داغازين » و« داسنة »

والفونسو أليوكرك Alphonse Albuquerque وفي الهند الشرقية باسم ملك البرتقال وهو الذي اكتشف للاوربيين جزيرة زنجبار وحاول امتلاك مصر او تخريبها بتحويل مجرى النيل الى البحر الاحمر ولكنه لم ينجح وتوفي سنة ١٥١٥ م. سنة ٩٢٠ هـ اي قبل الفتح العثماني بسنتين

هناك رجل هو شرقي غربي او في الحقيقة دولا الى هولاء ولا الى هؤلاء فقد كان طليانياً فتشرق وكان يهودياً فتمسلم ثم تنصر واسمه جسبار وسيأتي الكلام عليه في محله. خزاه الله

***

لماذا خصصت الكلام على هذه الحقبة التاريخية المحصورة بين سنتي ٨٩٨ و٩٢٣ للهجرة؟ لان سنة ١٤٩٢ م. ٨٩٨ هـ كان فيها زوال ملك المسلمين عن الاندلس بتسليم غرناطة. وفيها وضع كرستوف كولومب قدمه في ارض الدنيا الجديدة فانهالت القناطير المقنطرة من الذهب والفضة وخيرات «الهنود الغربية» على مملكة اسبانيا

ولان دياز كان كتشف رأس الزوابع قبل ذلك اي سنة ١٤٨٦ (٨٩١—٨٩٢ هـ ولقد تمكن فاسكو دي جاما وعاد في سنة ١٤٩٧ (٩٠٣ هـ) والفي مراسيه في سنة ١٤٩٨ (٩٠٤ هـ) ببلاد الهند على مدينة كاليكوت Kalikotta, Calicut [1] التي يسميها العرب قاليقوط ايضاً وهي التي اخذ الفرنج من اسمها لفظة Calicot للدلالة على نوع القماش المعروف الى الآن بهذا الاسم لامتيازها بنسجه. وهي غير مدينة كلكته (Calcutta) التي اقامها الانكليز من عهد غير بعيد في بلاد الهند

اذا تقرر هذا وارسلنا راتد النظر الى ما جرى ويجري وراء الستار وتدبرنا مثار الحروب التي وقعت بين الدول من قديم الزمان الى هذه الساعة لتحققنا ان التجارة كانت ولا تزال هي السبب الاصلي في شروب نيرانها وما تجره وراءها من ويلات الفوادح والاهوال. نعم ذلك هو الواقع وعين اليقين — ولكن هذه العلة الاساسية — وهي التجارة — كثيراً ما تكون مستترة بحجاب (كثيف او شفاف) من الاغراض الاخرى مثل نشر الدين او المحافظة على الناموس او غير ذلك من المرامي التي يتذرع بها ارباب الحل والعقد في سوق الجماهير الى المجازر البشرية

ستأتي البقية

(١) يعني ذلك باللغة السنسكريتية قلعة الديك